

تاريخ الاستلام: 2021/09/10 تاريخ القبول: 2024/01/31 تاريخ النشر: 2024/02/01

أ. آسيا بن عدي *
جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة (الجزائر)

Email : assiagoogl2019@gmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الحفر في أعماق التراث الأسطوري الجزائري الذي تقلّ الدّراسات فيه، وذلك للكشف عن جوانب مهمّة من حياة الإنسان الأمازيغي، وطريقة تعامله مع الطبيعة وتفسير تقلّباتها المختلفة، وظواهرها المتنوّعة من خلال تلك الأساطير التي أجابت عن تساؤلاته، وبوّرت ما يجري من حوله . وقد كان التعامل مع هذا التراث الأساطيري عبر وسيط مهم وهو الشّعر المعاصر الذي وظّف هذا الموروث كمعادل موضوعي يعكس التجربة الشعورية الإنسان، وقد مثله في هذا المجال "عزالدين ميهوبي" في قصيدة (طاسيليا).
الكلمات المفتاحية: تراث، أسطورة، معادل موضوعي، مقلّس، شعر.

Abstract:

This study aims at digging into the depths of the mythical Algerian heritage, in order to uncover important aspects of the Amazigh human life, its way of dealing with nature and the interpretation of its various variability, and its different phenomena through those myths that answered his questions and justified what is happening around him.

The dealing with this mythical heritage through an important medium which is the contemporary poetry, and which employed this heritage as an objective correlative reflecting the human experience, and which was represented in this field, by "AzzedineMihoubi" in his poem (Tasilia)

Keywords: heritage; myth; substantive equivalence; sacral; poetry.

:

1-المقدمة:

ينحو الأدب الشعبي نحو التعبير عن حياة الناس في حلّهم وترحالهم ظاهرها وخفيّتها، والنّبش في أغوار النّفس الإنسانيّة التي طحنتها موجع الفقر وآلام الشّقاء، فكان المثل الذي يختصر العناء والتّعب، والحكاية التي تعكس الواقع بحلوه ومرّه، والسّيرة التي تحي الأُمجاد، واللّغز الذي يضمّر أكثر ممّا يخبر .

وعلى هذا الأساس يرمي هذا الأدب بأشكاله المختلفة إلى تحقيق الإفصاح عن الدّات عبر تفسير جانب من جوانب الحياة ، فهو نتاج عقلية مفسّرة تستخدم اللّغة في الخلق والتّفسير، وهو غنيّ بالمعنى والرّموز التي تكشف عن تجارب الفرد، ولا عجب أن يشعر الإنسان أنّ العالم كلّّه يتحدّث من خلال الرّموز التي تتطلّب القراءة والتّأويل . (نبيلة ابراهيم، 1986، ص:08)

من هنا كانت العودة إلى استنطاق المنجز الأدبي الشّعبي في الدّراسات الحديثة بأشكاله المتنوّعة من أجل الكشف عن عمق التّجربة الإبداعية للإنسان وفي الوقت نفسه الولوج إلى عوالم الدّات ورصد طرائق تفكير الإنسان الأوّل التي جسّدها في ممارساته الإبداعية الكثيرة، أو في أعماله اليدويّة كالرّسم والنّحت والعمارة . وسواء كان التّراث الشّعبي مادّي أو لامادّي فإنّه مجموعة من الرّموز تستدعي التّفسير لأنّها تختزل ظروف الإنسان وهمومه.

2-الثّقافة الشّعبيّة الجزائرية القديمة:

لطالما وضعت الثّقافة الشّعبيّة لشمال افريقيا (تامزغا) موضع تهميش واحتقار على الرّغم من أنّ المنطقة قد عرفت تطوّرا فكريّا كبيرا في فترة ما قبل الميلاد أثبتته البحوث الأركيولوجيّة من آثار ومسكوكات ونقوش، وغيرها ولتنمّ عن تراث أدبي شعبي عظيم، وطقوس متنوّعة مارسها الإنسان الأمازيغي منذ زمن.

وقد حمل التاريخ حب الأمازيغ لمختلف الفنون، وسجّل بحروف من نور أعمال العظماء الذين ذكرهم هيرودوت في كتبه من الأدباء والفلاسفة أمثال: أبوليوس، والقديس أوغستين، ودوناتوس، وترتليانوس، وباتيليانوس، وفلوروس وغيرهم. وحفلت الثقافة الشّعبية الأمازيغية بمختلف أشكالها الشّعبية من أمثال وألغاز وحكايات وأساطير بأنواع مختلفة من الرموز التي عبّرت عن حياة الإنسان الأمازيغي في وقت الزراعة والحصاد والصّيد أيضاً، وهذا ما جعل الشعب الأمازيغي يمارس الكثير من الطّقوس والاحتفالات التي تتعلّق بالآلهة وطريقة التّضرّع لها.

3-أسطورة عروس المطر: حدود الميث وسطوة الطّقس:

لعلّ الإنسان الأوّل قد أيقن وهو يواجه هذا العالم بأسلحة بسيطة أنّه لا مفرّ له لإرضاء فضوله والرّد على تساؤلاته من العودة إلى التّأليف الأساطيري الذي يمارسه الحكماء، والذي يتجاوز الحكاية الخرافية الخارقة إلى السرد المنطقي المقنع -على الرّغم من الخيال المجنّح الذي يميّز هذه الأساطير- لترتدي هذه الحكايات هالة التّقديس، وتكتسي طابع العقيدة ثمّ تتمظهر في شكل طقوس وعادات وتقاليده يقوم بها النّاس لإرضاء آلهتهم وتقديم مظاهر الولاء لها، ويرى الأنثروبولوجيون أنّ الأساطير تعبر عن مشاعر إنسانية، وتصورات ومواقف، تدلّ على فلسفة الإنسان في الوجود، وعلى محاولاته الفكرية الأولى، والتي تتضمن خلاصة تجاربه، وعليه فإنّ الأسطورة تعدّ تسجيلاً للوعي الإنساني واللاوعي في آن واحد وهي وإن اشتملت على أحلام وانفعالات وتصورات وأخيلة، فإنّها اشتملت أيضاً على حقائق يمكن أن تنكشف بوضوح إذا عرفنا طريقة تفسيرها. لهذا فالأسطورة هي السجل الأمثل للفكر في مراحلها الابتدائية، ولا يمكن لأحد أن يدّعي حق تأليفها، فهي مجهولة الأصل والمؤلف -بل وأحياناً- المنشأ والتاريخ، وهو ما جعل الأسطورة تتميز بخصائص متنوعة أهمها:

- ترتبط كل أسطورة بنظام ديني معين و تعمل على ترسيخ معتقداته وطقوسه.
- تتميز موضوعات الأسطورة بالشمولية كموضوع التكوين، والعالم الآخر، وخلق الإنسان وسبب وجوده، وتلجأ إلى الخيال والعاطفة والرموز المختلفة.
- تملك الأسطورة سلطة عظيمة على عقول الناس و نفوسهم لأنها تتوخى الإقناع عن طريق الخيال والفكر معا.
- تتميز بعمقها الفلسفي الذي يميزها عن الحكاية الخرافية أو الحكاية الشعبية.
- تعتبر الأسطورة في القديم بمثابة العلم حاليا إذ لا تناقش صحتها أبدا.
- معظم الأساطير يتقاسم البطولة فيها الآلهة أو أنصاف الآلهة و تواجد الإنسان فيها يكون مكملا لا غير.
- تشارك الأسطورة مع الفلسفة خصوصا والعلوم الإنسانية عموما في مواضيع قصصها المقدسة التي تبرز ظواهر الطبيعة أو نشوء الكون أو خلق الإنسان و غيرها من المواضيع التي تعتمد على التفكير.
- من هذا المنطلق اكتسبت الأسطورة في بداياتها طابع التّقدّيس فصارت "حكاية خارقة مقدّسة من قبل الخيال الجمعي بسبب اعتمادها على الآلهة، والأبطال وممارستها للتفسير والتّعليل"
- (P.Brunel, CL.Pichois, A-M.Rousseau, 1986, p 125)
- لهذا شكّلت الأسطورة ركيزة مهمّة من ركائز التراث الشّعبي الإنساني، لأنّها تعبّر عن عقيدة الشّعوب وفلسفتها في الحياة حيث تبدأ حقيقيّة وتنتهي إلى سراديب الخيال والغربة، وسحر المحكي الذي جبل عليه الإنسان .
- والأسطورة الطقوسية بشكل خاص هي من أهم أنواع الأساطير الأكثر ارتباطا بالإنسان لأنها تمثل الجانب الكلامي والأفعال التي يقوم بها الفرد من أجل التقرب من الإله والحصول على حاجياته، تقول الدكتور نبيلة إبراهيم: «لم يكن الإنسان البدائي

يتساءل عن وجود الآلهة في حد ذاته و لكنه يتساءل عنها بوصفها المصدر الأول للظواهر الكونية و المنظم لها -فهو حينما يتساءل عن مصدر المطر والبرق والرعد والنبات إلى غير ذلك، كان لابد له من أن يربط وجود هذه الأشياء بالقوة الغيبية التي آمن بسيطرتها عليها، وقد رأى الإنسان البدائي لهذا السبب أن يكون في صلح دائم مع الآلهة وأن يكون على صلة وثيقة بها ليكسب ودها عن طريق العبادة و التبجيل و التضحية، ومن هنا نشأت الطقوس الدينية التي كان الإنسان يحييها في مواسم معينة، قبل استقبال موسم الحصاد أو نزول المطر أو تجنباً لوقوع الشر إلى غير ذلك» (نبيلة ابراهيم، 1986، ص 28)

بهذا الشكل نمت أسطورة عروس المطر التي نتج عنها الكثير من الممارسات التي امتدّت إلى يومنا هذا، فأصل الميث فتاة تعيش في أعالي الأوراس تدعى "تيسيليت" امتلكت جمال الطبيعة الهادئ، وسموّ النفس، فأحبّها الناس مثلما أحبّتهم، فاتّخذت المروج والأنهار موطناً لها لا تغادرها إلّا عند المساء .

وتقول الأسطورة أنّه صادف وأن رأى إله المطر والرعد والبرق "أنزار" الفتاة "تيسيليت" ، فأحبّها وطلب منها مباركة الزّواج الإلهي بها لكنّها رفضت ذلك، وفي الحال توقّفت الأمطار، وجفّت الأنهار، واكتست المروج ثوباً رمادياً قاحلاً بدل الثوب الأخضر الذي كانت تتباهى به، وهذا كلّه تعبيراً عن غضب إله المطر من جرأة تيسيليت ورفضها له، ممّا جعل الناس تستغيث به طلباً للماء الذي لا تستمرّ الحياة إلّا به، لكن أدعيتهم ذهبت أدراج الرّياح، لذلك صعدت تيسيليت الجبل ودعت الإله أن يرفع عنهم غضبه لأنها تقبل أن تكون عروساً بشريّة لإله المطر، وفي الحال سالت الأودية بالمياه، وروت الأمطار عطش الحقول، وامتألت الآبار بالمياه، وحمل "أنزار" تيسيليت إلى عالم السّماء (عبد الرحمن بوزيدة، 2005، ص 63-64).

وهنا ينتهي الميث ليفتح المجال للممارسات التي تعبّر عنه حيث أصبح النّاس في جبال (تامزغا) يقدّمون أجمل فتاة قربانا لإله المطر كلّما جذبت الأرض، ويستعطفون الإله ليمدّهم بالماء، ثمّ تتطوّر الممارسات بعد الإسلام لتغدو احتفالات نسويّة تخرج فيها النّساء خلف فتاة ترتدي أجمل الملابس طالبين الاستسقاء من الإله .

والملاحظ أنّ هذه الطّقوس التي تمارس في فترة الجفاف والجذب تمتدّ إلى كلّ أنحاء المغرب العربي بتسميات مختلفة: "تيسيليت نونزار" أو "تلاغنجا"، أو "بوغنجة" ، ويقوم النّاس بإلباس ملعقة خشبيّة كبية بزي العروس، ثمّ تحمل عاليا من مجموعة من النّساء اللّواتي يطفن بها طالبات للماء والمطر ثمّ تقام الولائم والألعاب التي تعبّر عن الخصب والتماء، ذلك أنّ "المطر ضروري للخصوبة، وهو في الميثولوجيا الأمازيغيّة السائل النّاجم عن زواج كوني بين الأرض والسّماء ممثّلة في ملك المطر حسب ميث يفسّر طقوس تاغنجا، ويعرف باسم تاسليت أونزار، حيث تبدّد الأرض كفتاة في نهر جاف تستغيث بأنزار الذي يهبّ لمعانقتها ومدّها بالمطر، ويعيد لها الحياة" (محمّد أوسوس ، 2008، ص 119)

1.3-رمزية الأرض:

لطالما قدست الأساطير الأرض، وجعلتها الأم الجامعة لكل الأحياء؛ لدرجة النهي عن ضربها بالأقدام وقت الاحتفالات خوفاً من ألمها كما هو الحال في أسطورة شمال إفريقيا، ففي هذه الأسطورة كانت الأرض هي الرحم الذي ولد أول زوجين فيها، والمسكن الأول والوحيد لهما ومثلما انبعث الإنسان منها فإنه يعود إليها عند الممات، لهذا اعتبرت الأرض هي مصدر الخصب والتكاثر، ورمز الأنوثة والأمومة الراعية لكلّ البشر .

وقد حفلت أساطير الخلق بقصص لقاء الأرض (المؤنثة) بالسّماء (المذكر) الذي كان السبب في وجود هذا العالم.

2.3- رمزية الماء:

لقد كان الماء عنصراً مهماً في حياة الناس وفي حياة سكان المغرب العربي؛ من ناحية الزراعة والعيش، وقد عرف عن الأمازيغ عبادتهم لنبابيع الماء وبرك الماء وتأديتهم لطقوس خاصة بالقرب منها؛ بما فيها الزواج، وقد ورد في قاموس الأساطير الجزائرية الكثير من الأساطير التي ترفع من شأن الماء عن طريق تقديم القرايين للأنهار والوديان وهو الأمر الذي حدث في أسطورة أنزار وجعل تيسيليت تضحي بنفسها من أجل الحصول على الماء الذي يعدّ رمزا من رموز تكوين العالم .

4-علاقة الأسطورة بالأدب:

لقد وجد المبدع في الأسطورة ضالته، فالأدب بطبعه لا يعطى تفسيراً نهائياً لأنه يلجأ إلى الغموض الذي هو أساس التأليف الفني، والأسطورة تعتمد في بنائها على استخدام المجاز والعجائبية السحرية كما يستخدم الأدب الكلمات بدلتين مختلفتين: دلالة مباشرة ترتبط بلغة التواصل، ودلالة إيحائية تتأرجح بين الخفاء والوضوح ، هدفها الرئيسي استثارة المشاعر تحقيق الجمالية، بالإضافة إلى أن الأسطورة تعتمد تقنيات الكتابة السردية كالسرد والخيال والعقدة والحل وغيرها، وعن طريق الأسطورة، اكتشف الإنسان التعبير الرمزي، فالأسطورة نظام فكري متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودي وخدم الأدب بإثرائه وزيادة جماليته، كما خدم الأدب بدوره الأسطورة بأن حملها وحافظ عليها

من هذه الزاوية لجأ الكتاب إلى الأسطورة لعدة أسباب أبرزها إضفاء الشرعية وهالة التقديس على الأعمال الأدبية وإلباسها لباس العجائبية وبالتالي ضمان البقاء والخلود لهذه الأعمال، ثم إنّ الأساطير تزود الأدب بالثراء الذي تحويه قصصها مما يضيف جمالية ومتعة على الكتابة الأدبية، وتفتح المجال لتحقيق الغاية المشتركة لكليهما

(الأسطورة والأدب) ألا وهي تحقيق المعرفة والفائدة للإنسان أي معرفة الإنسان موقعه في الوجود، ثم الدور المنوط به في هذا الموقع بالذات. على هذا الأساس يكون تعامل الباحث مع هذه الأساطير بالعودة إلى منطلقاتها الحقيقية باعتبارها حكاية مقدّسة ثمّ تتبع التغيرات التي لحقها الأديب على هذه الأسطورة أثناء تداخلها بالنص الأدبي، وقد وفدت الأسطورة عبر الأدب إلى عمق ثقافتنا وتكفل الأدب بحمايتها من الزوال وذلك انطلاقا من ملحمتي **هوميروس** الإلياذة والأوديسا ثم من الملاحم الرومانية، وكذلك الأمر مع المسرحية التي احتضنت الأسطورة وبنّت معالمها على أنقاضها مثل مسرحية **أوديب** لسوفوكليس والتي تأثر بها توفيق الحكيم فألف على منوالها **أوديب ملكا**، وكذلك وظف أسطورة بيجماليون وغيره من الأدباء في العالم .

5- طاسيليا وجدلية الأسطوري والشعري:

يستعيد الشاعر الجزائري عزالدّين ميهوبي أسطورة عروس المطر الجزائرية ليعبّر بها عن واقع الوطن اليوم، فتكون تيسليت (طاسيليا) صورة الجزائر التي يسعى الجميع إلى الفوز بها.

من أجل ذلك كان الصّراع على أشدّه بين العاشق (الرّاعي غيلاس)، والإله (أنزار)، صراع بين قوّة الحب، وقوّة الرّعد والبرق والمطر، وعلى الرّغم من أنّ الأسطورة قد انتهت باستسلام تيسليت لإله المطر، وتضحيتها بنفسها من أجل شعبها إلا أنّ طاسيليا قد تحدّت قوّة الطّبيعة، ورفضت الانصياع للإله وكذلك فعل غيلاس الذي تغلّب نايه ودموعه على قوّة أنزار، وعرف هذا الأخير أنّ الإنسان أيضا ينتج الماء بقوّة الحب .

فالشّاعر وظّف الأسطورة في نصّه الشعري فألبسه هالة من الجو الأساطيري حتّى غدا نصّا أسطوريا تستخدم فيه المعركة بين الآلهة والبشر، وفيما تتسارع الأحداث

بأجاء التفوق الإلهي بعد الجفاف الذي أصاب البلاد، تعلقو الوطنية في قلوب الأهالي
ممثلة في طاسيليا وغيلاس من أجل الذود عن عرينهم، وعدم الخضوع لأيّ قوّة تريد
الاستيلاء على بلادهم .

وعلى هذا الأساس تغدو نوميديا (الجزائر) مركز الصّراع، وهو ما يبرزه التّهديد الصّريح
من أنزار إلى غيلاس :

صوت أنزار:

كن من شئت..

فإنّ الطّفلة لي..

كن عاشقها إن شئت..

وكن من ينثر عطر نوميديا في السّاحل

أنا سيّد ماء الحكمة..

سيموت النّاس وتصبح نوميديا رمادا

وأنا أضحك منك ومنها

لا تقرب عرش الماء

فإنّك ميّت (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 25)

ولا يملك أهل نوميديا أمام هذا التّهديد غير التضرّع لأنزار بأن يرفع عنهم هذا
العذاب، فيما يستमित (غيلاس) باعتباره رجلا أمازيغيا حرّا في الدّفاع عن أرض
نوميديا وشعبها، ومواجهة سلطة الظّلم بقوّة الحق والحب، يقول الشاعر على لسان

غيلاس:

لن أرحل يا أنزار

في قلبي ما يشبه حربا ودما وخيولا ورماحا

وعيوننا تفرح حين أعود

لن أرحل هذي نوميديا تعرفني

وتعلم أني العاشق ..

هل يوجد مثلي في عرشك؟

يا أنزار

سيصير الماء رمادا

وتصير نوميديا أعظم من عرشك يا أنزار

والنّاي يغنيّ للأموات

فلماذا تهرب يا أنزار من التّابوت

الليل يفوت

والعاشقة الأبدية ترقص كلّ صباح

فلماذا يا أنزار تخاف الشّمس (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 25-26)

وفي هذا المقطع يستدعي الشاعر الأسطورة الأورفية التي يصبح من خلالها غيلاس

هو أورفيوس صاحب القيثارة التي تنشر الحب بين النّاس، لذلك اتّخذ النّاي رمزا

للحب .

وفي استحضار عزالدين ميهوبي للتّابوت فإنّه جمع بين الموروث الشّعبي والتّراث

الديني، حيث استخدم التّابوت وسيلة لتخويف أنزار كما استخدمه القرآن الكريم

كرمز لتكليف طالوت بمحاربة جالوت وجنوده، فكان التّابوت رمز للمساندة الإلهية

لهذا القائد المؤمن، وعلى هذا فإنّ الجمع بين الموروثين يشير إلى اتّحاد الموروثين في تشكيل الشّخصيّة الجزائريّة، الجانب الأمازيغي، والجانب الإسلامي .

5-تظاهرات الطّقس على مستوى النّص:

يدخل القارئ ديوان طاسيليا من بوّابة المسرح التراجيدي اليوناني، حيث تتحرّك الشّخصيّات مرفقة بالجوقة التي تعتبر شيئا ضروريا كونها تعبّر عن الطّقس التي كان يقوم بها الناس طلبا للماء .

من هذه الزاوية يدلف الشاعر إلى عمق الأسطورة لينتهي عند الممارسات بكلّ خلفياتها التبعديّة ، وفي مشهد مسرحي مهيب يقول:

"ينصرف الراهب، تأتي النساء مع ضوء الفجر، وتظهر يونيسا

يونيسا:

خرج النسوة عند الفجر إلى الساحات

وغنين المطر الموعود

كأنّ القادم من سدف الغيمات

هو المولود

أصوات النّساء:

يا أنزار

يا أنزار

اطفِ، اطفِ..

هذي النّار

يا أنزار..

قطرة ماء ..

تطفئ النّار

يا أنزار..

يونيسا:

ومشين بعيدا في فرح الشجر المفتون

يظلّ يقطر منه الماء

نوميديا الأرض.. سماء (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 42-43)

يبقى صوت النساء يردّد:

يا أنزار

يا أنزار

اطفِ، اطفِ..

هذي النار

يا أنزار..

قطرة ماء ..

تطفئ النار

يا أنزار.. (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 43)

ولعلّ القارئ وهو يرنّ هذه الدّعوات مع هؤلاء النّسوة يحسّ أنّه يحضر احتفالا من الاحتفالات التي تقيمها النّسوة في فصل نهاية فصل الصّيف لطلب الغيث، فالنّص الشعري لم يتلبّس فقط بلبوس أسطوري، بل لقد تهادى في ترتيب الأدعية التي يتضرّع بها النّاس لإله المطر ليمدّهم بالغيث، وهو الأمر الذي يجعل قصيدة طاسيليا تنمهي بالميث وبالطّقس أيضا، فقد جاء في قاموس الأساطير الجزائريّة في أسطورة أنزار وعلى لسان تيسيليت :

"يا أنزار، يا أنزار،

يا أزهار البراري،

أترك الوادي يجري من جديد،

وتعالى وانتقم منّي وخذ بئارك" (عبد الرحمن بوزيدة، 2005، ص 64).

وتتكرّر هذه المقاطع التي تحمل بين جنباتها استغاثات النساء لتدلّ على أنّ الأمر ما زال مستمرّاً إلى يومنا هذا، فعلى الرغم من انتهاء الوثنيّة وانتشار الإسلام إلّا أنّ الطقوس ماتزال تمارس إلى حدّ يومنا هذا، فالأسطورة تزول ولكن تبقى ممارساتها مثلها مثل بقية الأساطير الأمازيغيّة ، كأسطورة الإله "بعل" إله الربيع التي انتهت كميث بدائي لكنّ طقوسها مازالت تمارس إلى يومنا هذا تشهد عليها هذه الاحتفالات التي تقام كلّ عام مع بداية الربيع .

ويستمرّ منظر الخضوع والدّل الذي يقوم به النّاس خوفاً على حياتهم:

صوت جماعي:

يا أنزار

إطفِ إطفِ هذي النّار

يا أنزار

من مائك تروى الأقمار

يا أنزار (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 88)

ولعلّ الشاعر وهو يستعيد معالم هذه الأسطورة بكلّ خلفياتها المؤسسة لهذه الطقوس التي لا زالت تقاوم طغيان الأزمان إنّما يفعل ذلك في سبيل استعادة تراث فذا الوطن من جانب ومن جانب آخر السعي لجمع شتاته من خلال التذكير بالمقاومة العنيفة

لنوميديا (الجزائر) لمختلف أشكال الاستعمار التي تكالبت عليه وعلى خياراته على مدى الأزمان والعصور التي تعاقبت .

من هذا المنطلق يغدو التراث الشعبي بكلّ تظاهراته صورة من صور الهوية الوطنية وبالتالي الوحدة، وقد استغلّ عز الدين ميهوبي في هذا المسرح الشعري أسطورة الماء بكلّ معالمها التي لا يمكن أن تنفصل عنها لأن أصل الأسطورة حقيقي وهو محاولة الإنسان مقاومة الجذب والبحث عن الماء الذي هو مصدر الحياة ف"لا شك أنّ كل هذه الأساطير على أساس من الحقيقة غير أنّ الخيال الإنساني مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول، وإن تكن قريبة محببة إلى النفوس، ومع ذلك فأغلب هذه الأساطير يدور حول إنشاء حياة أفضل وهي محاولات نشأت مع نشوء الإنسان يفسر بها أهم المشاكل التي واجهته في بدء حياته على الأرض، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون، ويمتاز بواسطتها الهوة بين العالم الذي يعيش فيه والكون"(سليمان مظهر، 2000، ص 05) ، وهذا ما أدّى بالأدباء إلى امتصاص هذه النصوص لإثراء أعمالهم الأدبية، وترغيب القراء فيها في الوقت نفسه، لذلك سعى الشاعر في هذا الديوان إلى رسم معالم هذا الوطن في فرحه وبهجته، وفي حزنه وجدبه فتجلّت نوميديا قلعة تتكسر على جدرانها كل محاولات الأعداء، يقول على لسان غيلاس رمز المقاومة في هذه الأرض:

غيلاس:

يا هذي الأرض الممتدة
بين ضفيرة عاشقة وحديث الناي
لا يعرف عطر الحبّ سواي
يا هذي الأرض..
كم جربا خضت لأجل نوميديا
لم أهزم..
يا سيفي العاشق للدم لا تصمت..
كم جربا خضت؟
أنا لا أذكر لكخي ما زلت أحارب
تلك طبائع أهل نوميديا...
يا هذي الأرض
دعيني أهرب منك
لأجعل من أنزار وليمة نوميديا
يا هذي الطفلة أنت السيف
وأنت دمي المسفوك..

فلترحل يونيسا إن شاءت (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 35)

إنها صورة مشرقة من صور صمود هذا الشعب في وجه الطغاة والمتجبرين الذي
يمثلهم هنا أنزار، بكل قوته المستمدة من عالم الآلهة الغامض المخيف، إنها الشجاعة
التي جبل عليها 'نسان هذه الأرض .

6-المسافة بين المقدّس والمدنّس:

دأبت الأساطير على إقامة ذلك التّوازن في حياة الإنسان الأوّل، وذلك لأنّها حاولت أن تجد الحلّ للمشاكل التي كانت تواجهه في هذه الحياة وعلى رأسها ضعفه أمام الطّبيعة، فكان اللّجوء إلى الآلهة يمدّه بالقوّة اللاّزمة، خاصّة وهو يحس أنّها تقف معه في هذا العالم "فأغلب الأساطير يدور حول إنشاء حياة أفضل، وهي محاولات للتفسير الخيالي لأسباب الظّواهر المعروفة بما فيها الخلق، حيث تناقش أصل هذا العالم، ونهايته أيضا، كما تحدّد للإنسان المبادئ التي يجب أن تسيّر حياته الأرضيّة " (Cristophe Calier et Nathalie Griton-Notterdam , 2014, p 05) وهو الأمر الذي جعل الأسطورة تغدو عقيدة ودينا لأصحابها، فتكتسي حلّة المقدّس وترسّخها الطّقوس والعبادات

على هذا الأساس عُدّت (عروس الغيث) أو (تسليت نونزار) عقيدة الشّعب الأمازيغي في الزّمن الأوّل، وقد كان توظيفها في هذا النصّ الشعري هو محاولة لاستحضار الأسطورة الأصل من خلال الشّخصيّات الرّئيسيّة (تسليت) و(أنزار)، ومن خلال الحدث الرّئيسي التضرّع إلى الإله من أجل الحصول على المطر، لكنّ الشّاعر تجاوز الميث الأصلي إلى صنع الدراما عبر الصّراع المفتعل بين أنزار و غيلاس صورة الشّعب الجزائري في صراعه ضدّ المعتدين .

ولعلّ طغيان الحوار بين الشّخصيّات قد جعل النصّ مسرحيّة شعريّة بامتياز على غرار مسرحيّات سوفوكليس، أو أسخيلوس وبمصاحبة الجوقة، لكنّ النّهاية قد خالفت تصوّر المسرح القديم الذي ينتصر فيه القدر أو الآلهة على إرادة الإنسان، فقد أعطى عزالدين ميهوبي الأولويّة لإرادة الشّعب الجزائري ممثّلا في غيلاس الذي انتصر بقوّة الحب وانتصرت معه طاسيليا ونوميديا ككل ليعلن إله المطر أنزار أنّ الإنسان انتصر عليه، يقول:

أنزار:

كم كنت غيبًا يا أنزار
الغيمة تعرف شكل الحب
وأنت تراقص هذي الطّفلة
وهي تراقص طفلا في الأحراش
كم كنت غيبا يا أنزار
تَهْتَرّ لصوت نساء كنّ يغنّين لمائك حين الجذب
فيجيء الخصب
كم كنت غيبا
حين حسبت نوميديا ترحل نحو الموت إذا عطشت
الدّمة بعد الدّمة تصبح قطرا
والقطرة بعد القطرة تصبح نهرا
كم كنت غيبًا (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 86)

هكذا تزول معالم الأسطورة ليستمرّ الطّقس، يؤكّد على أنّها حاضرة في كلّ العصور، ويشهد على قدرتها الرّهيبية على إقناع الإنسان "فما بين العجائبي المدهش وما بين المقدّس سعت الأسطورة دائما إلى الإجابة عن سؤال الأصل الذي أرّق الإنسان بعيدا عن التاريخ، حيث تحتلق بداية للعالم يمكن للطّبيعة والحيلة أن يتموضعا من خلالها فتبرّر دون ظهور الكون وأصل الشّعوب الأولى" (Cristophe Calier et Nathalie Griton-Notterdam , 2014, p 05) وكلّما عاش القارئ هذه الممارسات التي تعيد إلى الوجود العادات التي كان الإنسان يقوم بها على أرض الجزائر في سنوات القحط والجذب، تذكّر أنّ أرض الجزائر أو نوميديا لا يمكن أن تموت إذا عطشت،

لأنّ الشاعر في تدنيسه للنّص الأسطوري أراد أن يسجّل أنّ الإنسان الجزائري رجل حر لا يقبل الخضوع أو الدّل .

وعلى الرّغم من كلّ هذه الصراعات التي تطبع هذا النصّ إلا أنّ المكوّن العاطفي الذي طالما ميّز أساطير الخصب حاضر بقوة سواء على مستوى الآلهة (أنزار) أو البشر (غيلاس) الذي كثيرا ما يجد الشاعر فسحة ليترك المجال له ليعبّر عن لواعج قلبه ويفصح عن حبّه الكبير لـ (تيسيليت)، وهذا من خلال أحاديثه مع القمر التي يبدع الشاعر أيما إبداع في تصويرها، حيث يقول:.

غيلاس:

يا قمري السهران هل تسمع صوتي؟

أنا غيلاس الراعي ..

أعرف أنّك تلمحني وتشيح بوجهك عني ..

كي تلمح عاشقة من نار

أعرف أنّك تشبهني حين تقول

لماذا ينظر هذا الراعي إلي ولست سوى صخر معجون بمياهى الضّوء ..

أعرف أنّ لقلبك ما يجعل عاشقة في الأرض تنام وفي

شفتيها بقايا عطر

وورود وغناء

يا قمري السهران ..

لو كنت ضياء الأرض لصرت رداء للعشاق

لو كنت شموسا تطلع من عينين لصرت حديث العرافات ..

لو كنت نبيا لزرعت الفرحة في لغتي،

ورحلت إلى طاسيليا أسألها

كالتائه عن وطن العشاق

وأعود وحيدا تحملي الأطيّار

يا قمري هل تسمع صوتا يطلع من أحراش نوميديا؟ (عزالدين ميهوبي، 2007، ص 06)
إنها لوحة ومانسية غاية في الروعة لأنه ترتبط لطبيعة المتجلية في نوميديا كالقمر والمس
والأحرش والأطيّار والورود، وكذلك طاسيليا الجميلة، كلّ شيء جميل في هذا الوطن
قبل أن تعكّر صفوه هذا الدّخيل أنزار ويمنع المياه من أن تسقي هذه المروج الخضراء
وهذه الوديان، فتسبب القحط والعطش، مما أجبر الناس على الخضوع له، واستجداء
الماء الذي يمثّل الحياة في الأسطورة .

وقد تكون قصة المياه هذه عاملا مشتركا بين عدّة أساطير كونها تدخل في أساطير
التكوين، فأسطورة الخلق السومرية تروي أنه في البدء كانت الآلهة (نمو) وهي المياه
الأولى التي انبثق عنها كل شيء، وأنجبت نمو ولدين (آن) اله السماء المذكر، و(كي)
الهة الأرض المؤنثة.

أما الأسطورة البابلية التي تمجّد الإله مردوخ، وهي نشيد يتلى في رأس السنة، حيث
يقوم فيها هذا الاله بتقسيم جسد الالهة (تعامه) وهي المياه الأولى إلى نصفين فيرفع
الأولى سماء، ويبسط الثانية أرضاً.

وفي الأسطورة التوراتية العبرية التي تداخلت بالدين أنّ الإله يهوه خلق السماوات
والأرض وكانت الأرض وخالية ومظلمة وليس فيها إلا روح الإله ترفرف على وجه
المياه ثم يقوم يهوه بتقسيم المياه الأولى إلى قسمين، يرفع الأولى إلى السماء وبسط
الثانية في الأرض.

وبالتالي فإن الماء في الأساطير هو المصدر الأول لكلّ الخلق سواء كان الكزن أو
الإنسان .

7-خاتمة:

انطلاقاً مما سبق يمكن للدارس الحصيف أن يدرك مدى الثراء والتنوع الذي تحتكم عليه أسطورة شمال إفريقيا بشكل عام والأسطورة الجزائرية بشكل خاص، ذلك أنّ هذه الأساطير كانت بمثابة الدّين والعقيدة لسكّان هذه المنطقة، والصورة العاكسة لحياثهم مثلما هو الأمر بالنسبة للشعوب الأخرى، وهو ما ينجّر عنه تقديس الطّقوس والممارسات التي تعبّر عن مختلف العقائد، وبالتالي عن القوانين التشريعية والتفسيرية التي تسيّر هذه المجتمعات القديمة في غياب الدّين والعلم.

ولعلّ علماء الأركيولوجيا والإثنولوجيا الذين اتّخذوا الجزائر وكل بلدان المغرب العربي مركزاً لأبحاثهم، قد فتحوا المجال واسعاً بإسهاماتهم وبحوثهم للمؤرخين ليسجّلوا مخلفات الثقافة الشعبية، كما منحوا الأدباء مادّة أساطيرية كبيرة يتّخذونها أرضيّة لتشكيلاتهم التخيلية، والتي عادة ما تؤكّدها الممارسات الشعبيّة كما هو الحال مع أسطورة إله المطر (آنزار) التي لا زالت تعيش إلى يومنا هذا، وحتى ولو تداخلت طقوس الاستمطار مع المناسبات الدينية (كالمولد النبوي الشريف مثلاً في الجنوب الجزائري) فإن غياب الأمطار في بعض المناطق (الجبليّة خاصة) يؤدّي إلى خروج النسوة والأطفال لطلب الغيث من الله على سبيل التقاليد والعادات دون معرفة بأصل هذا الميث، على هذا الأساس كان استدعاء الشاعر عز الدّين ميهوي لهذه الأسطورة بكلّ طقوسها في هذا المسرح الشعري الذي يشبه إلى حدّ كبير المسرح اليوناني القديم، هو من باب إلباس النّص لبوس أساطيري مفعم بالسحرية والعجائبية، وإكسابه أيضاً الثراء والقداسة والخيال التي تحتكم عليها الأسطورة، وهو ما أدّى إلى هذا الجو المهيب الذي رافق كلمات هذه القصيدة التي حاولت عبر هذه الطقوس تخليد قصص كفاح هذا الوطن التي لا تنتهي أبداً ما دام الطامعون فيه لا يتوقفون عن التخطيط

لاستغلاله، وهكذا ندرك أن الأسطورة تختفي لكن طقوسها تبقى خالدة خلود الأدب الذي طالما تصدّى لحفظها من الزوال، لذلك يمكن في الأخير أن نستخلص ما يلي:

- لطالما رافقت الطقوس الميث وسعت إلى تثبيت جذوره في المجتمعات
- حاول الأدباء تحرير الأسطورة من ضيق المعتقدات إلى سعة الثقافات
- استفادت النصوص من مختلف الأساطير التي شكلت مادّتها ومنهجها كذلك
- أضفت الأسطورة على النصوص الأدبية هالة من القداسة وأثرت مواضيعها .
- أكسبت هذه النصوص الأسطورية مختلف الآداب جمالية كبيرة وغموض مما جعلها تستقطب الكثير من القراء .

قائمة المراجع:

- 1-ابراهيم نبيلة ، (1986)، أشكال التعبير الشعبي، (دط)، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- 2-أوسوس محمد، (2008)، كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية، (دط)، الرباط، المغرب منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية .
- 3-وزيدة عبد الرحمن، (2005)، قاموس الأساطير الجزائرية،(دط)، الجزائر، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، منشورات كاستو،
- 4-مظهر سليمان، (2000)، أساطير من الشرق، (ط1)، القاهرة، دار الشروق
- 5- ميهوبي عز الدين، (2007)، ديوان طاسيليا، (ط1)، بيروت، دار النهضة العربية
- 6- Brunel . P, Pichois .CL, Rousseau. A-M, (1986), **Qu'est ce Que La Littérature Comparée** , PARIS, Armand Colin
- 7- Calier Cristophe et Griton-Notterdam Nathalie , (2014), **Myths Des Mythologies** , Paris, Ellipses, Edition Marketing S.A